

لم تكن خسارة الأدب العربي في وفاة الدكتور زكي مبارك - رحمه الله - هينة ولا بالتي يمكن أن تعوض . . ويعالجونها بيانها عن الطبع؛ وان هؤلاء العشرة البررة متى خلت أمكنتهم في الأجل القريب أو البعيد، من يحمل عنهم أمانة البيان، ويبلغ بعدهم رسالة الأدب، والشاعر المتغزل، ربيب سنتريس، وحبیب باریس وطیبب لیلی المریضة في العراق (الدكاترة) زکی مبارک ولا ریب أن أدب زکی مبارک سینال ما یستحقه من دراسة الباحثين وعناية المؤرخين، ويحتل مكانه اللائق به بين أبناء جيله، وأترك لأصدقاء زکی مبارک أن یرثوا الصدیق الوفی، ولتلاميذه وعشاق أدبه أن یدرسوا الکاتب البلیغ، ومن الأزهر إلى الجامعة، . . فبادلہ أهله المحبة والإعجاب، . . تحية وفاء إلى تلك الروح اللطيفة المرفرفة فوق بغداد. . . ترجع صلة الدكتور زکی مبارک بالعراق إلى عهود دراسته الأولى يوم عنى بالأدب العباسي وشغل نفسه أعوام طويلة بأدباء العراق، فبث هذه الدراسة في محبة العراق، واسترعى تاريخه الحافل تفكيره وألهب خياله. وقد خاطب العراقيين ذات مرة في بعض محاضراته العامة قائلاً: (وأنا في الواقع تلميذ بغداد قبل أن أكون تلميذ في القاهرة أو باريس، فإن رأيتم صراحتي فلا تلوموني، فاللوم على أسلافكم الذين شرعوا مذاهب العقل والمنطق) حتى إذا دعي - رحمه الله - إلى التعليم في دار المعلمين العالية ببغداد سنة 1937 رحب بذلك قائلاً: إن من العقل أن أعرف جوانب من الشرق بعد أن عرفت جوانب من الغرب. وصح عندي أن الهجرة إلى العراق قد تشرح دقائق الأدب في العصر العباسي، وليس من المقبول أن يصح لمثلي أن يصف باريس عن علم، ويصف بغداد عن جهل. وشد رحاله إلى بغداد، وأحدثت زيارته فيها حركة أدبية ونشاطاً فكرياً بما كان يبثه قلمه - على عادته أياً كان - في صحافة العراق ومجتمعاته وأديته من حيوية وحركة. وحتى صحت لنفسي أخطاء كثيرة في فهم الأدب والتاريخ) قضى زکی مبارک في العراق تسعة أشهر حافلة بالعمل زاخرة بالإنتاج، ولم يقف نشاطه في حدود عمله الرسمي، أو دروسه في دار المعلمين العالية، وإلقاء عشرات المحاضرات. وقد عنى - رحمه الله - بشئون العراق الفكرية والثقافية عناية عظيمة، فدرس الأدب العراقي عن فهم وروية، وكتب عن المرأة العراقية ونهضتها، وتبنى فكرة إنشاء الجامعة العراقية، وتحمس لها أكثر من العراقيين، ودعا إليها في كل مناسبة - وأحياناً بدون مناسبة أيضاً - ولعله كان أول من دعا لها ووجه إليها أنظار المسؤولين، وحملهم على التفكير الجدي فيها. وتطوع - رحمه الله - لتصحيح ما كان خاطئاً من الآراء والمعلومات عن العراق في البلاد العربية، فكان على قوله (من صور العراق في مصر، ومن صور مصر في العراق) وكان رسول الأخوة العراقية المصرية، أدى بقلمه ما لا تؤديه سفارات ولا معاهدات، قال في المصريين - وهو شاهد من أهلها - (إن المصريين يقدون إلى العراق وليس في صدورهم ثروة غير الحب، ومن أجل هذا يحبهم العراقيين، فإن سمعتم أن مصرياً شقي في العراق فاعلموا أنه مصري مزيف) كما قال في أهل العراق - وهو الخبير العارف بهم - (إن العراقيين يحبوننا اصدق الحب، فليعرفوا جيداً إننا نحبهم ونتمنى لهم كل الخير، وننظر إلى بلادهم نظر الأخوة الصادقة التي لا تضمر غير العطف والصدق). وطلب إليه أن يلقي في بغداد محاضرات أدبية عامة، ولما رآه من شبه بين شخصية الشريف الرضي وشخصيته في تدفق الإحساس وكآبة العاطفة وغدر الزمان، فأدى بذلك خدمتين جليلتين، الأولى للأدب العربي، والثانية للعراق لما جره الحديث من ذكر العراق ووصفه وتاريخه. وكان - رحمه الله - بما عرف عنه من اندفاع الشعور وحدة العاطفة ورقة الطبع قد درس الشريف الرضي ودعا الناس إلى دراسته ودلهم على مواطن العبقرية والعظمة في شعره. ولكنه كان أول من صدق أقواله فيه، حتى قال عند تقديمه المحاضرات مجموعة في كتاب، وفي بغداد نظم قصيدة ألقاها في (نادى القلم العراقي) يقول إنها أعظم ما نظم في حياته عنوانها (من جحيم الظلم في القاهرة إلى سير الوجد في بغداد) ومطلعها وفدت على بغداد والقلب موجع. وقال - رحمه الله - في (وحي بغداد):